الميتافيزيقا عند وايتهيد

م. د. سهام شيت حميد م. د. محمد عبد الله الخالدي
جامعة بغداد– كلية الآداب

المقدمة:

الفرد نورث وايتهيد فيلسوف انكليزي ولد في عام 1861م، دخل جامعة كامبردج وتخرج منها وعين فيها عام 1910م، ثم انتقل إلى لندن، وكانت اهتماماته العلمية منها الرياضيات وفلسفة العلم، ثم الميتافيزيقيا، له مؤلفات مهمة في تاريخ الفكر العلمي والفلسفي، أهمها[1]:

- **العلم والعالم الحديث نشر عام 1925.**
- **الدين من طور التكوين نشر عام 1926.**
- **أهداف التربية نشر عام 1928.**
- **مغامرات الأفكار نشر عام 1933.**
- **العملية والواقع ظهر عام 1929.**

وله مؤلفات مهمة أخرى، نشرت بعد انتقاله إلى الولايات المتحدة الأمريكية. تميزت بأسلوب علمي رصين، بيّن فيها موقفه من الفلسفة ومن العلم، ويعد وايتهيد من علماء الرياضيات والفلسفة الطبيعية. في هذا البحث نحاول تبيان أصول فلسفته الميتافيزيقية والعلمية. ومحاولة وايتهيد بناء نظرية جديدة من منظور جديد لتثبيت المفاهيم والمبادئ العامة لدراسة الوجود. لقد بدأ في دراسته للميتافيزيقا، فكان يرى أن غاية العلم فهم الطبيعة، وغاية الفلسفة ربط العالم الحسي بالعالم الطبيعي, ومن هذا المبحث الموسوم (الميتافيزيقا عند وايتهيد) بحثنا مشكلة الميتافيزيقا والمبدأ الانطولوجي، ثم طبيعة الميتافيزيقا، ثم علاقة الميتافيزيقا بالمشكلة الابستمولوجية، ثم مشكلة الزمان والمكان، وهكذا بدت المشكلة الميتافيزيقية واضحة بعد ان تناولنا الأجزاء المهمة منها ومعرفة موقف الفيلسوف منها وهي كالآتي:

1. موقف وايتهيد من دراسة الوجود والمبدأ الانطولوجي: كان وايتهيد متفقاً مع أرسطو فيما يتعلق بأساس المشكلة الميتافيزيقية فقد ذهب الاثنان الى أن المشكلة الميتافيزيقية تتركز في البحث عن ماهية وطبيعة الموجود الجزئي، واتفق وايتهيد مع أرسطو على وجود الكيان الجزئي أي الشيء الفردي الذي يوجد وجوداً فعلياً وواقعياً وفي هذا نجد وايتهيد يقول: (إن المبدأ الأرسطي العام، الذي سلمنا به، يقرر أنه بمعزل عن الأشياء الفعلية لا يوجد شيء ، لايوجد شيء واقعي، أو شيء له أدنى تأثير)[2].

إن وايتهيد يستعمل كلمة فعلي Actual لكي يصف بها الأشياء الجزئية لاسيما في كتابه (التطور وعالم الواقع). إن هذا المصطلح يعني الوجود بكل ما تحمله الكلمة أي بمعنى الوجود الذي لا يكون وراءه شيء[3]، ومن ثم تكون الأشياء الفعلية هي الأشياء التي توجد بأكمل ما يمكن. وعلى هذا فهذه الأشياء هي الموجودة بحق، إما كلمة كيان (Entity) فهي مرادفة تماماً في اللغة اللاتينية لكلمة Thing، وفكرة الكيان فكرة مهمة جداً، ويرى وايتهيد انه يمكن التمييز بين تلك الكيانات عن طريق استعمال مصطلح (فعلي Actual) إذ تميز كلمة فعلي بين الكيانات المستقلة والكيانات ذات الوجود الكامل عن الكيانات الأخرى التي هي ليست كذلك, فالفعلي من الكيانات يشير إلى وجود آخر عكس غيره من الكيانات. لذلك جعل وايتهيد مصطلح (الكيان الفعلي) Actual Entity مرادفا للمصطلح الارسطي Ovoiu وهذا المصطلح الذي ذكره أرسطو في فلسفته الميتافيزيقا الذي يمكن أن يشير إلى ذلك الكيان الجزئي أو إلى الشيء الفردي الذي يوجد وجود فعلي وواقعي لقد أدرك وايتهيد أن هذه الحقيقة وهي: أن الأشياء الموجودة وجودا تاما تمثل الاهتمام الرئيسي للبحث الميتافيزيقي.

كان تأثر وايتهيد بأرسطو واضحاً جدلاً في موضوع (الكيانات) وعدّ ذلك المفهوم مفهوماً انطولوجياً وأساسياً في فلسفته, ولمفهوم الكيانات الفعلية أثر أساس في المشكلات الميتافيزيقية. أن المبدأ الانطولوجي يعني فلسفياً علماً يقوم بدراسة الوجود، وهذه الدراسة تختلف في جوهرها عن الانثروبولوجيا، التي تهتم بعلم الإنسان، فالانطولوجيا تدرس الضوء الذي يكشف عن الموجودات، (الأشياء والفكر الإنساني)، وكذلك تختلف الانطولوجيا عن علم الأخلاق، فالانطولوجيا تبحث عن الحقيقة، وعن المطلق، وهذان المفهومان هما جوهر الدراسة الميتافيزيقية (فالحقيقة والمطلق غاية من غايات الفلسفة).

ويعرف الدكتور محمود رجب الانطولوجيا بقوله: (أنها البحث في معنى الوجود بما هو حقيقة ، وهذا يعني أن هذا المبدأ يهتم بالوجود وماهية الوجود الانساني، إذ يكون الوجود موضوع اهتمامه الرئيس، على أن يكون هذا الوجود وجود الكيانات الفعليةActual Entities التي وحدها الموجودة[4]. ووايتهيد يتفق من الأساس مع أفلاطون وأرسطو من حيث اعتبار المشكلة الميتافيزيقية الرئيسية هي: مشكلة الطبيعة القصوى للأشياء، وهي مشكلة الوجود. ان هذا الموقف الميتافيزيقي يتطلب قبول كيان فعلي فريد يكون المنبع الأولي الذي تشتق منه الغاية الذاتية لكل كيان فعلي. وأشار وايتهيد إلى أن هذه المشكلة هي نفسها التي واجهها أرسطو في المسألة نفسها وحلها بالطريقة نفسها[6]. كانت هذه المشكلة الفلسفية الأولى تحت دائرة البحث الفلسفي عند الفلاسفة السابقين ويشير ويوضح بذلك وايتهيد موقفه من فكرة أرسطو: (حينما بحث المسألة الميتافيزيقية، لم يكن منحازاً أو متعصباً على الإطلاق، وانه كان أخر الميتافيزيقيين الأوربيين ذوي الأنصاف، وبعد أرسطو فان الاهتمامات الأخلاقية والدينية بدأت في التأثير من النتائج الميتافيزيقية[4].

2. من المشكلات الأساسية التي اهتم بها وايتهيد في دراسته لمفهومين أساسيين من نظرته الميتافيزيقية التي حاول فيها أن يظهر جانب دراسته من فلسفة العلم والفلسفة العلمية وهما (الصيرورة الطبيعية والديمومة) عن هذا الموضوع يرى د. ياسين خليل (ان الفريد نورث وايتهيد يضع فلسفة شاملة للكون أساسها الصيرورة الطبيعة والديمومة (Process and Reality). وقد اتخذ من حقائق الفيزياء والبيولوجيا مادة لفلسفته في الوجود والمعرفة)[5]. ومن خلال دراسته للميتافيزيقيا حاول وايتهيد فيلسوفا وعالم رياضيات وعالم منطق الافادة من نتائج العلوم الفيزيائية والطبيعة وإخضاع هذه النتائج داخل إطار فلسفي محدد يبين صلات النتائج والاستنتاجات الفلسفية المترتبة عليها.

فانصب اهتمامه في دراسة مشكلة طبيعة الميتافيزيقيا، ويرى الدكتور علي عبد المعطي محمد في كتابه (الفرد نورث وايتهيد، فلسفته وميتافيزيقياه) أن: (الميتافيزيقيا عند وايتهيد تمثل جانباً يمثل جوهر فلسفة الميتافيزيقية ومن هذا كله نفهم ان وايتهيد يستخدم مصطلح الفلسفة التي تدرس الوجود على جهة الشمول والإطلاق، وعلى نحو ما يمكن ان يكون، بل من الواجب عليها، أن ترتفع إلى ما هو أعلى من العالم الطبيعي المحسوس فالفلسفة مبحث يقسم أقساماً فرعية: مثل الميتافيزيقيا، والايستمولوجيا والكوزمولوجيا، والأخلاق والجمال...)[6]، فالفلسفة في رأي وايتهيد

والميتافيزيقيا هي العلم الكلي، وبهذا ينقلنا وايتهيد إلى محاولة جديدة من منظور جديد بسبب المفاهيم مثل الكينونة، الحقيقة، الكون، ويسمى وايتهيد هذه المفاهيم أنها (المناسبات الفعلية) ويعرفها أنها (الأشياء النهائية والواقعية التي يتكون منها العالم)[7]، تم يطلق عليها مفهوم آخر هو: (الواقعة الكاملة ونحن نستطيع أن نعبر عن هذا التصور الخاص بالواقعة الكاملة من مصطلحات تشير إلى أفكار رئيسة تتعلق بطبيعة الواقع، وهنا نجد أنفسنا في ميدان الفلسفة)[8]، وهنا يعرف وايتهيد الميتافيزيقيا أولاً ويقول: (إن الفلسفة التأملية تحاول تشكيل نسق مترابط ومنطقي وضروري من الأفكار العامة، في مصطلحات يمكن عن طريقها تفسير كل عنصر من عناصر خبرتنا)[9]. أما التعريف الثاني فهو الذي أورده في كتابه (الدين يتكون) وفيه يقول (إذ أعني بالميتافيزيقيا العلم الذي يبحث عن اكتشاف الأفكار العامة المناسبة أساساً والتي لاعني عنها بالنسبة إلى تحليل كل شيء يحدث)[10].

ويمكن بعد هذا أن يعد أهم ما يميز الفكر الميتافيزيقي كون الميتافيزيقيا تعمل على استحداث مفاهيم ومبادئ عامة لفهم الوجود أو تجربة الوجود ، وتكون هذه المفاهيم ثابتة وضرورية ومفسرة لكل الوجود والكينونة على نحو عام ان هذه المسألة ترتبط بمشكلة تثبيت جوهر الحقيقة، وأما بسبب كونها عامة فذلك كي تكون صالحة لتفسير كل عنصر من عناصر تجربتنا.

ويشترط أيضاً أن يكون النظام ميتافيزيقياً متماسكاً ومنطقياً وممكن التطبيق، ويعني بالتماسك أن تكون القضايا مترابطة ترابطاً عضوياً ومكملة أحداها للأخرى، بحيث لا يكون لها معنى بمعزل عن النظام، ويعني بالمنطقية انه لا تناقض بين القضايا وان تكون الحدود معّرفة ويستدل على النتائج وحسب قواعد الاستدلال الصحيح. وهذا يعني (ان الميتافيزيقيا تتطلب فهم طبيعة الكيان الفعلي من جهة مبادئه العامة التي يستدرك فيها مع أي كيان فعلي آخر، أو من جهة ملامحه التي تكون عامة بين كافة الكيانات الفعلية أو تحدد ما تكون عليه أو تبين ماهيتها)[11]. إذ أن ما يحتاج إليه الفكر هو اللعب الحر للخيال الذي تتحكم فيه ضرورات التماسك والمنطق.

وتمثل ميتافيزيقيا وايتهيد أهم وانضج انتقال نقل المعرفة العلمية والمباحث الابستمولوجية إلى المباحث الميتافيزيقية، وعلى الرغم من ان بداية فلسفة وايتهيد تمثل فلسفة الرياضيات إلا انه اتجه للاهتمام بمشكلات المعرفة الميتافيزيقية بصورة خاصة للقيام بمعادلة جديدة ومخلصة لإعادة المكانة إلى الميتافيزيقا وإنقاذ ما يمكن إنقاذه وبناء الميتافيزيقا على أسس علمية سليمة، والواقع أن الميتافيزيقا عند وايتهيد تحاول ان تبني مذهباً أو نظاماً يضم الأفكار العامة، فمثل هذه الأفكار

تمكن من تفسير كل عناصر تجربتنا، بحيث تكون هذه الأفكار مترابطة أو متعلقة بعضها ببعض تعلقاً ضرورياً وهذا الترابط يكون في الوقت نفسه معياراً مهماً ورئيساً يجب ان يرتقي إليه أي نسق ميتافيزيقي، ويتضمن معياراً دقيقاً يجب توفره من تلك الأفكار بالميتافيزيقية نفسها[12].

فالميتافيزيقيا بحث منظم عن أسس ومبادئ الكون أو ماهيته وهذا البحث يكوّن نظاماً من الأفكار العامة يبدأ بالتجربة ثم يعمم منها بحرية محدودة بالمبادئ المنطقية مع افتراض عقلانية الكون أو على الأقل عقلانية تجربتنا عن الكون. ولهذا يذهب وايتهيد إلى انه (لا يمكن فهم الترابط فهماً أعمق وإدراك أهميته القصوى بالنسبة لإقامة الأنساق، والتفهم العقلي الكامل له، إذا نظرنا فيما يتناقض معه، اعني إذا نظرنا في اللا ترابط، إن اللا ترابط يعني عند وايتهيد ذلك الفصل التعسفي الذي يشير إلى أن المبادئ أو الأفكار لا تحتوي أو لا تملك أية علاقات ترابط وفقها، ومن ثم لا يمكن ان يتضمن بعضها البعض، ولا يمكن بالتالي ان تؤسس نسقاً)[13]. إذن فالترابط عنصر مهم من الميتافيزيقيا، لأن الميتافيزيقيا بحث عبر المبادئ الأولى، وبذلك يكون الترابط المطلب الأساس لبناء مذهب ميتافيزيقي متكامل وهذا ما يقره وايتهيد بوضوح، إذ يقول: (إن الترابط يمثل أعظم واكبر مطلب عقلي سليم)[14]، أي بالتفكير العقلي السليم يمكننا الوصول إلى ترابط الأفكار وانسجامها على نحو نستبعد معه العشوائية.

ويرى وايتهيد: (أن الأهمية الرئيسة للترابط في الميتافيزيقيا تتضمن خاصية رئيسة لها تتمثل في تعقب النزعة العقلية إلى آخر مدى وما يترتب على ذلك من وجود ترابطات داخلية رئيسة بين الأشياء، وأن العالم بما يحويه من عناصر للنظام والفوضى يشارك في تدعيم هذا الاتجاه)[15]. وهنا تتضح أهمية الترابط في الأفكار في أي بناء فكر ميتافيزيقي إذا نظرنا إلى نقيضه، أي إلى اللا ترابط، فعدم الترابط يعني التفكك أو الانفصال العشوائي أي لا توجد علاقة متبادلة أو ارتباط وثيق داخلي. ويرى وايتهيد ان الحقيقة عملية صيرورة مستمرة أو سيل من الأفكار لا ينقطع، يمكن تحليله إلى وحدات أساسية ذرية هي الحوادث وهذه الصيرورة هي محاولة فلسفية للاستفادة من المجال أو الحقل الفيزياوي، كما ان الحوادث تشبه الخلايا في الأحياء والالكترونات في الفيزياء، والحادثة نقطة زمانية ذات أبعاد أربعة يكون الزمان البعد الرابع فيها، وهي اقرب إلى الطاقة منها إلى المادة وترتبط بما يسبقها وما يليها ارتباطاً عضوياً، إلا أنها تتمتع بشخصية خاصة بها كالخلية والإلكترون وتعبر كل حادثة جديدة عن خلق أو إبداع.

ويعتقد وايتهيد أن الفلسفة والعلم (يهتمان بفهم الوقائع الفردية كأمثلة للمبادئ العامة، يمكن فهمها كتجريدات أما الوقائع فلا تفهم إلا من خلال تجسدها في المبادئ)[16]. فإذا كانت الفلسفة تبحث في التعميمات المميزة للواقع الكامل للحقيقة التي تصبح الحقيقة من دونه مجرد تجريد، فان العلم هو الذي يصنع التجريد وهو الذي يقدم الحقيقة لها.

3. تعد قضية ("المنهج"، مسألة أساسية في دراسة المشكلات الميتافيزيقية وقد ظهرت هذه القضية بوضوح في موقف وايتهيد من المسألة. عالج وايتهيد فلسفته الميتافيزيقية بمنهج علمي هو منهج التعميم الوصفي)[17]، وهذا المنهج لا يختلف كثيراً عن المنهج الاستقرائي، وأحياناً يسمى بالمنهج الاستدلالي الاستقرائي، وبما ان وايتهيد فيلسوف تجريبي عقلي فان (تجريبية وايتهيد الجذرية تتجلى في تأكيده أن الانتقال من الخاص إلى العام أو من الخبرة الحسية إلى الحكم العقلي المستدل منها مباشرة يتم مباشرة بدون وساطة من مبادئ أو مفاهيم عقلية تكون غير مشتقة من الخبرة الحسية، ومن ثم فالتفسير عنده لا يتم من خلال مفاهيم قبلية أو فرضية، بل في إطار مبادئ مبثوثة في الطبيعة، تكتشف خلال الحدس أو خلال إدراكنا الحسي لها، وهذا يستفاد من قوله أن الغاية من الفلسفة الطبيعية، وصف الطبيعة القابلة للمعرفة الحسية بحدود ما هو قابل للمعرفة الحسية[18].

ويرى وايتهيد ان المنهج الفلسفي ينطوي بالضرورة على التعميم، ويتضمن هذا التعميم عملية انتقال من الجزئي العيني إلى الكلي، وهو يقوم على الوصف أكثر مما يقوم على الاستنباط وعلى الرغم من ان وايتهيد عدّ الاستنباط منهجه الأساسي في الرياضيات واعتبره كذلك حجر الزاوية في مجال البحث الفلسفي، وبذلك يطبق منهج (منهج التعميم الوصفي) الذي يتخذ شكلا وصفيا للعملية الديناميكية وعنده انه أولى من ان يتولى وصف البنية الاستاتيكية، ويضع وايتهيد مكان الوصف المورفولوجي وصفاً للعملية الديناميكية للحياة[19]. لذلك يجمع وايتهيد بين منهج التعميم الوصفي وبين المنهج العلمي المعاصر من دراسة الميتافيزيقيا. لذلك يرى أن أهم ما يميز نظام وايتهيد الميتافيزيقي انه يحاول الاستعانة بوضوح بكل ما توصل إليه العلم الحديث في مختلف اختصاصاته وانه يحاول أن يربط وينسق بين حصيلة المعرفة الإنسانية المعاصرة أي يجمع بين تخصصه العلمي ودراسته للميتافيزيقيا ان المنهج عند وايتهيد في دراسته عملية الصيرورة الطبيعية والديمومة يقوم على جانبين: تجريبي وعقلاني، لذلك حاول الانطلاق في الواقع لبناء تعميمات تتميز بالمنطقية والتماسك ثم محاولة التثبيت في كون هذه التعميمات كافية وممكنة التطبيق على الواقع[20].

ان مكونات التجربة لا يمكن ان تتبين أو تتضح إلا بعملية صعبة من الاستدلال العقلي، ونحن نستطيع بهذه الطريقة التي يسميها وايتهيد طريقة أو منهج العقلية الخيالية، ان نكشف الثابت والضرورة اللا متغيرة التي لا نستطيع اكتشافها أو ملاحظتها بطريقة الاختلاف، أي ان عناصر تجربتنا (لا تتضح ولا تتحيز إلا بقدر قابليتها للتغير، على شرط ان تبقى المدة المطلوبة للأهمية)[21]. ومن هذا الجانب الأيستمولوجي في دراسة الميتافيزيقيا يقول وايتهيد: (ان طريقة العقلنة الخيالية تنجح فيما فشلت فيه طريقة الاختلاف، فهي تلاحظ الثابت الحاضر دائما الذي فشلت فيه طريقة الاختلاف في ملاحظته، أي أن ما يرمي إليه وايتهيد هو أن يجمع بين طريقتين أي طريقة الجمع بين الاتفاق والاختلاف بهذه (الطريقة الأقرب إلى جوهر تفكيره من طريقة الاختلاف، لان ما يتغير بوضوح يكون حاضراً لم يغيب أو يكون غائباً ثم يصبح حاضراً)[22].

أن وايتهيد في ميتافيزيقياه يهتم بتلك الطرق اهتماماً بالغاً لاسيما في البحث عن الخصائص العامة للكائنات الفعلية ومحاولة اكتشافها بواسطة الخبرة، لذلك يقول وايتهيد من ذلك: (ان ما هو ضروري غير متغير، ولهذا السبب يبقى في الفكر مظلماً وغامضاً). ويرى ان إقامة مذهب ميتافيزيقي أو بناءه يجب أن يتم بالمنهج الذي يجب إتباعه هو (التعميم التخيلي)، وهناك شرطان: فالأول هو البحث الدائب عن أمرين عقليين هما الاتساق، والكمال المنطقي[23]. أما الشرط الثاني في الميتافيزيقيا فهو (السير بمنهج التعميم كي يتحقق ويطبق. واختبار نجاحه هو التطبيق في مجالات تجاوز المجال المباشر الذي نشأ منه، أو بعبارة أخرى يجب ان يحقق رؤية جمالية)[24].

4. موقف وايتهيد من مشكلة الابستمولوجية والصيرورة الطبيعية:

لابد لنا من بداية المسألة أن نعرف مسبقاً موقف وايتهيد من قضية الابستمولوجية المعرفية أو من فلسفة المعرفة، فهو بداية من موقفه الأساس المعرفي يُقر بوجود عناصر أساسية من التجربة، وأخرى عقلانية من العقل فالتجربة والعقل ملتحمان معاً في إطار وحدة عضوية أصلية لذلك فالخبرة هي استنباط الذات العارفة – عقلاً وجسماً – بالموضوع الخارجي الذي يستثير اهتمامه، ولولا ضرورة التحليل من اجل الفهم ما قلنا بوجود داخل أو خارج، فالإنسان والطبيعة هما شيء واحد تجمعهما الواقعة الطبيعية الشاملة[25]. ويرى وايتهيد في أصول المعرفة الإنسانية أن (الحياة العضوية تجمع بين العقل والجسم في وحدة واحدة، ثم تعود فتجمعهما بالعالم المحيط بها، فالذات المدركة هي حادثة طبيعة وان كانت مركبة... وهي ذات قطبين عقلي وجسمي تضمهما رابطة عضوية كتلك التي بين الالكترونات ونواة الذرة من البروتونات، وعندما ننظر إليها من

الخارج، نجد ارتباطها بالحوادث الأخرى التي تكون البيئة وأي محاولة ترى إلى تقنية الوحدة الداخلية أو تثنية الوحدة الخارجية هي ضرب من التجريد الضار بالفلسفة العلمية[26].

وعلى الرغم من أن نظرية وايتهيد المعرفية وفلسفته من الميتافيزيقيا تعتمدان على أسس تجريبية فإنها في الوقت نفسه تستهدف بناءً عقلياً وميتافيزيقياً. أي أن الكيان الفعلي مزدوج القطب أي أنه يحتوي على قطبين هما القطب الفيزيقي والثاني القطب العقلي أي أننا نستطيع أن ننظر من خلال مستويين متفاوتين في عمق الإدراك الأول هو مستوى الطبيعة في صورتها المجردة لتصورات عقلية بلا علاقات وهذا مستوى الفكر، حينئذ يكون إدراكنا للطبيعة بوصفها كيانات، والثاني هو في صورتها العضوية بوصفها مركبة من حوادث وموضوعات ذات علاقات بينهما هذا هو مستوى الوعي الحسي ويكون إدراكنا بها بوصفها عوامل Factors والكيان الذي هو من اختصاص الفكر مرادف لما نعنيه بالشيء Thing.

إذاً هناك قطبان في كل كيان فعلي، قطب عقلي، وقطب فيزيقي، وهما يرتبطان تمام الارتباط وفي هذا الصدد يقول وايتهيد: (إن القطب العقلي ينبع كمتمثل تصوري لعمليات القطب الفيزيقي، والقطبان لا ينفصلان من أصلها، فالقطب العقلي يبدأ مع التسجيل التصوري للقطب الفيزيقي)[27]. وفي هذه النظرة الابستمولوجية هناك تناسق مع نظرته الميتافيزيقية أو مع مبدأ الانطولوجي، ذلك ان هذا المبدأ يقتضي ان تكون المشاعر التصورية الأولية مشتقة من المشاعر الفيزيقية الأولية، كما يقتضي أن تكون كل التصورات Concept الفيزيقية الأولية، أو الأفكار Ideas مشتقة من المحل الأول من الخبرة الفيزيقية المباشرة بالفعاليات الأخرى، وحسب ملاحظة وايتهيد وعلى حد تعبيره (فان مقولة التوليد التصوري، تؤيد المبدأ القديم القائل بان الخبرة الحسية نتاج العمليات العقلية)[28] فمهمة الفلسفة الأولى التوحيد الكامل بين مكونات التفكير العقلي، أو بمعنى أخر التنسيق وإعادة التحديد، والإحكام الواضح، وضبط الاتجاهات المختلفة للمعرفة الإنسانية كالعلوم والجمال والاخلاق والدين وهي تتكامل جميعها لتشكل فلسفة المعرفة، فهي أشبه بأدوات الفكر العقلاني التي تتناسق فيما بينها لتكوين مبدأ الوجود. ويتضمن مبدأ الوجود ما يمكن تسميته (بالإمكانية المعرفية)[29]، وهذا المبدأ يعني ان كل العمليات العقلية المركبة تعتمد كما أسلفنا على المشاعر التصورية الأولية وهذه الأخيرة تعتمد على المشاعر الفيزيقية الأولية وينتج عن ذلك أن الفكر عند وايتهيد يعتمد ويرتكز على الخبرة الحسية إلا أن وايتهيد يرى أن علينا أن نتصور الخبرة الحسية في ضوء المشاعر الفيزيقية الأولية البسيطة المنتظمة في القطب الفيزيقي، التي يبدأ منها

ما أسماه بالتسجيل الصوري، يقول وايتهيد في بداية هذا الموضوع: (ان التسجيل الصوري يؤلف المادة الوحيدة للخبرة في رأي مدرسة الحسيين وهذا يعني ان هذه المدرسة أغفلت تماماً المشاعر الفيزيقية المنتظمة في القطب الفيزيقي، إن انطباعات هيوم الحسية ومعطيات الحسية لا تنطبق إلا على التسجيل الصوري)[30].

هذه العملية التجريدية تعد ذات أهمية كبيرة حيث أنها تختص بعلاقة التفسير العقلي أو النظرية العملية بالمعطيات الحسية فالكائنات الفعلية هي نفسها عوامل ولكن بعد إجراء عملية تجريد بعدي عليها وهذا يؤكد اتصال العقل بالطبيعة وعدم اكتفاء أي منهم بذاته، ولكن المهم أن نعرف أن التفسير أو الإطار النظري للخبرة ليس من اختصاص الفلسفة الطبيعية، فهي تحصر نفسها فيما هو مدرك فقط ولا تقحم نفسها في علاقة المعرفة)[31]. والفرق بين الإدراك الحسي والوعي الحسي، يتمثل في سطحية الأول بحيث يغذي الفكر بمادته التجريدية بلا علاقات ثم عمق الثاني الذي يصل الى فهم حقيقة الشيء التي تكمن في علاقاته.

وفي ضوء التصور الحي للخبرة، يرفض وايتهيد ان نعد الطبيعة البشرية ماهية وجودية فهذا المفهوم إن جاز أن ينطبق على إنسان ما فهو أجدر بالجنين في بطن أمه, فالإنسان هو مجموع خبرات، بينما تتعلق هذه الطبيعة بما لا يقع بالفعل وإنما بالتصورات الواضحة المتميزة, فهي حينئذ تثبت شيئا واحدا هو إنسانيتنا كما هي, فلا يكفي لكي يوجد الإنسان ان يفكر بل الفكر في كل شيء له وجود حقيقي. لذلك قرر وايتهيد (أن جوهر اللاعقلانية متضمن في اللا ترابط، وأننا إذا قبلنا المذهب اللا عقلي، فأننا نقبل في الوقت نفسه قبولاً صريحاً أو مضموناً للفصل التعسفي)[32]. أي أن المذهب اللاعقلاني يتضمن إنكار العقل ومن ثم إنكار المبادئ العامة سواء أكانت مطلقة العمومية أم أقل درجة في العمومية مما يهتم العلم؟... وبذلك وايتهيد يهاجم المذهب الوصفي تجاه موقفه من الميتافيزيقيا وهدفه لكل فكر ميتافيزيقي، وفي مواضع متفرقة من مؤلفاته هاجم هذا الموقف ويرى أنه موقف لا عقلي، وعدّه ممثلاً لأكبر خيانة حصلت في التاريخ ضد الفلسفة والعلم على حد سواء)[33].

أن نشأة الفيلسوف الميتافيزيقي، وهو يقيم البناء الفعلي بنتائج مستمرة من مبادئ عقله هو، شأنه في ذلك شأن الرياض مستخرجاً فيه النتائج من المسلمات كما رأينا عند وايتهيد وهو الفيلسوف الرياضي فقد اعتبر النسق الميتافيزيقي قابل للتطبيق بالنسبة لمختلف الوقائع أو هو على حد قوله (يمكن بواسطته تفسير كل عنصر من عناصر خبرتنا) لذا فان التصورات العامة الواردة

فيه، هي في حقيقتها اقرب ما تكون إلى المتغيرات التي نجدها في الرياضة والمنطق والتي يكون فيها قيم مختلفة ومتعددة[34]. وعلى الرغم من ذلك فان وايتهيد ليس فيلسوفاً عقلياً بالمعنى التقليدي كما هو متعارف عليه مثلاً عندما نصف (ديكارت) بأنه فيلسوف عقلي، إلا أن وايتهيد يعد اختبار الواقع وممارسته مباشرة أمرا لا يضاهيه شيء ، وكذلك هو يبحث عن علة الأشياء من خلال طبيعة الموجودات الواقعية ذاتها.

5. التفسير الميتافيزيقي للصيرورة الطبيعة:

في مشكلة المكان والزمان

في الفلسفة العضوية عند وايتهيد

يحرص العلم على ان تكون لديه معطيات دقيقة ومنظمة عن العالم ، وذلك من اجل صياغة المفاهيم والفروض صياغة رياضية ولاسيما وان العالم في نظر وايتهيد عالم عضوي في المقام الأول، أي يستحيل تصنيف مكوناته واستبعاد بعضها في ظروف من اجل التحكم في الدقة، فالعالم في رأي وايتهيد لا يتكون من أشياء بل من حوادث، أي يتألف مما يتم حددته فكل امتداد زماني للحادثة ، وكل خطوة من خطوات التجربة وكل ذرة من ذرات الوجود يحتل مناسبة زمانية معينة. ولهذا ألصقت الحوادث بخاصية جديدة هي نتاج اللقاء أو التقاء الزمان بالمكان. هذه التخصصية تتميز بكونها في حالة صيرورة دائمة، أي مرور مستمر، فهناك تعاقب الليل والنهار، وايتهيد في قوله صيرورة الطبيعة يتفق مع الفيلسوف الفرنسي برغسون حول الصيرورة، ولكن برغسون قصر صيرورة الطبيعة على الزمان وجعله ركيزة للتطور، اما وايتهيد فقد جعل الصيرورة مرتبطة بالمفهوم الجديد المعاصر (المكان، الزمان) وإلا ما استطعنا ان نفسر تطور الطبيعة إذا انفصل الزمان عنها[35]، غير ان البعض يمكن ان يعترض على صيرورة الطبيعة بالقول انه توجد أنماط من الثبات في الطبيعة ندركها بوعينا الحسي. وواقع الأمر كما يرى وايتهيد، أن مظاهر الثبات النسبي المشاهد في الطبيعة تعود إلى ثلاثة أسباب هي:

أ. البطء الشديد الذي يتم به التغير.

ب. قصور الإدراك الحسي السطحي عن ادارك حركة الحوادث.

ج. أن العلاقات بين الحوادث والموضوعات تكسب الحوادث صفات ذات ديمومة نسبية.

ثمة حقائق عند وايتهيد في مرور الحوادث فمرور الحوادث ليس مروراً دائرياً، أنما مستقيم وهذا يعني أنه يفضي دائماً إلى ما هو جديد. وهذا ما يقصده وايتهيد في (التقدم الخلاق)[36]، وان مرد الحوادث يعني انتقالها من مرحلة الفعل الحاصر إلى مرحلة الممكن، وعلاقة الامتداد تدعم هذا الانتقال والحوادث التي وقعت ثم مرت لم تفن بمرورها وإنما أصبحت عنصراً يدخل في تكوين ما هو حادثة وما سيحدث في المستقبل وهذا معناه أن الماضي غير قابل للإلغاء وإنما يشارك في صنع الحاضر والمستقبل[37]، لذلك وجب علينا أن نسلم بان كل الذي نلاحظه حوادث، وما دامت الحوادث موجودة، فان الزمان موجود، وإذا انعدمت الحوادث من الوجود النقي الزمان ولم يعد له وجود [38].

كما لا يمكن فهم الزمان في ميتافيزيقيا وايتهيد بدون فهم مسألة المكان، ولا فهم المكان من دون الزمان، لذلك يقول الكاتب الانكليزي ميتز: (فلا يمكن أن يوجد مكان بلا زمان، ولا يوجد زمان بلا مكان، مثلما يستحصل وجود المكان – الزمان دور مادة أو جوهر يملأه، ولابد أن يشمل كل كيان طبيعي على هذه العوامل مجتمعة ، كما لا يمكن أن تكون العلاقات بينهما خارجية فحسب، بل يجب ان يتغلغل كل منهما في الآخر تغلغلاً باطناً)[39]. فالطبيعة إذن عبارة عن شبكة متحدة فيما بينها، تتداخل أجزاؤها بعضها من بعض، والحوادث ليست زمانية فقط كما يفهما الآخرون، بل أنها ديمومة زمانية مكانية في الوقت نفسه.

عرّف وايتهيد مفهوم (التدفق) أو المرور: بأنه هو تدفق الزمان في الطبيعة بما يعبر عن صيرورة علاقة جزئياتها ببعضها، ومن ثم فالصيرورة تمر من خلال أخرى، وهذا التدفق أساس للوعي الحسي إذ يؤكد امتداد الزمان خلف الطبيعة امتداداً لا متناهياً[40]. أما مرور الطبيعة فيتعلق بالتدفق المستمر للحوادث في حدود المدة الواحدة. ان اتجاه المرور مكانياً – زمانياً هو من اختصاص صفة المرور. وبذلك نرى أن مرور الطبيعة هو حالة خاصة من الصيرورة الشاملة للطبيعة، ويكون المرور مظهر من مظاهر الصيرورة الطبيعية. هذا المظهر الكمي قابل للقياس، وهو ما يهتم به العلم، أذن فالمدة الواحدة لا تجسد المرور، ويتم ذلك من خلال النسق الزمني الذي يتضمن العديد من الحوادث، والحادثة تمثل امتداداً متساويا في كل من الزمان والمكان، هذا الامتداد هو نسيج للطبيعة ومبدأ الصيرورة فيها. وهذا المعنى للحادثة مستفاد بدرجة كبيرة من التقدم الذي أحرزه علم الفيزياء في القرن العشرين فلم يعد هناك مكان ثم زمان، فقد حلت الحادثة محل الجوهر القديم[41]، وأصبح ارتباط الزمان بالمكان هو أساس حركية الحوادث والطبيعة ككل هذه الحركية هي الأنموذج الكوني الجديد الذي قدمته النسبية والكوانتم، وأسهمت هاتان النظريتان أيضاً في نهاية

فكرة المادة كحقيقة قصوى لتحل محلها الطاقة وبذلك يقترب[42] مفهوم الطاقة من مفهوم الحوادث، فالحوادث وقوع ذو انتشار مكاني زماني.

فكرة (منهج التجريد الامتدادي) وأهميتها في ميتافيزيقيا وايتهيد:

منهج التجريد الامتدادي[43] كما قدمه وايتهيد (أسلوب تحليل كيفية استناد الطبيعة الى التجربة بوصفها تجربة لطبيعة الأشياء وليست تجربة للنقاط أو المساحات، فهو وان كان رياضياً إلا أنه يستند إلى الخبرة الحسية في الوصول إلى النتائج مما يؤدي الى تحديد العلاقة بين التصور العقلي وبين الواقع التجريبي، وعليه فوايتهيد أراد ان يثبت انه بالإمكان تحليل مكونات الخبر استرشادياً يصل الى المفاهيم الكامنة وراء مغزى الطبيعة والعلاقات والحوادث التي ترتبط بعلاقات فيما بينها، وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد مهران (ان منهج التجريد الامتدادي هو طريقة عقلية لاختزال العلاقات المكانية – الزمانية بين الحوادث حتى تصل إلى أيسرها وأكثرها وضوحاً ودقة، ومن ثم فهو الطريقة التي بها تتم ترجمة غموض واختلاط معطيات الخبرة الى وضوح ودقة العقل، فإذا صح القول ان المفاهيم التحليلية بشكل عام هي أساليب توصلنا إلى معرفة أكثر وضوحاً ودقة)[44] فيمكن عدّ منهج التجريد منهجاً تحليلياً. وأخيراً نرى ان وايتهيد كان في دراسته لهذه المفاهيم (الصيرورة الطبيعية) كان فيلسوفاً تجريبياً ذا نزعة واقعية ، شأنه شأن بقية الفلاسفة الانكليز ، يعتقد أولاً في وجود العالم الخارجي وجوداً مستقلاً منفصلاً عن وجود الذات الإنسانية التي تدركه، وثانياً يرى ان معرفتنا بوجود الموضوعات الخارجية يكون عن طريق إدراكنا إياها بالتجربة الحسية، إلا أن وايتهيد يتجاوز تلك التجربة إلى مستوى العقل الذي كان يؤمن به إيمانا وثيقاً، وأعطى للعقل دوراً ايجابياً مهماً.

هوامش البحث:

(1) Whitehead: A , N , Process and Realty , New York , Macmillan company , 1929, P.103.

(2) Whit head: A, N, Process and Realty, New York, Macmillan company, 1929, P. 103.

(3) Whit head: A, N, Science and modern world, New York, 1925, P.178, 179.

(4) Whitehead : Process , P.215.

(5) خليل، د. ياسبن ، مقدمة في الفلسفة المعاصرة، منشورات الجامعة الليبية، كلية الاداب، 1970، ص203.

(6) محمد، د. علي عبد المعطي، الفرد نورث وايتهيد فلسفته وميتافيزيقياه، سلسلة دراسات الفلسفة الحديثة والمعاصرة، العدد 3، الإسكندرية، 1979، ص300.

(7) White head : Process and Reality , P.27.

(8) White Head : Adventures of ideas , New York , Macmillan , Press , 1933 , P.200.

(9) White Head : Process , P.3.

(10) White head : Religbn the Making , P.72.

(11) محمد ، د. علي عبد المعطي : الفرد نورث وايتهيد فلسفة وميتافيزيقياه، ص168.

(12) رجب ، د. محمود : الميتافيزيقيا عند الفلاسفة المعاصرين ، ص305.

(13) محمود ، د. علي عبد المعطي: وايتهيد وفلسفته وميتافيزيقياه، ص171.

(14) White head : Process and Reality , P.7.

(15) محمد ، د. علي عبد المعطي : وايتهيد فلسفته وميتافيزيقياه : ص175.

(16) White head : Adventures of Ideas , New Yourk , Macmilian company , 1933 , P.179.

(17) بدوي، د. عبد الرحمن: الموسوعة الفلسفية، ج2 ، المؤسسة العربية للدراسات والتوزيع ، القاهرة، 1986 ، ص43-44.

(18) ابراهيم ، د. زكريا: دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، القاهرة ، 1968 ، ص176.

(19) بدوي ، عبلد الرحمن : الموسوعة الفلسفية ، ص43-44.

(20) محمد ، د. علي عبد المعطي : وايتهيد فلسفته وميتافيزيقياه ، ص185-186.

(21) رجب ، محمود : الميتافيزيقيا عند الفلاسفة المعاصرين ، ص314.

(22) محمد ، د.علي عبد المعطي : وايتهيد فلسفته ومتيافيزيقياه ، ص189.

(23) رجب ، د. محمود : الميتافيزيقيا عن الفلاسفة المعاصرين ، ص317.

(24) المصدر نفسه ، ص317.

(25) إسلام، د. عزمي: اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، 1980، ص218.

(26). White head : Process and Reality , P.127-129.

(27). Whit head : Process and Reality , P.18.

(28). Ibid , P.351.

(29). Ibid , P.351.

(30).White head : Process and Reality , P.127-129.

(31) إسلام، د. عزمي : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ، ص2 ن 3 .

(32) رجب ، محمود : الميتافيزيقيا عند الفلاسفة المعاصرين ، ص305.

(33) المصدر نفسه ، ص306.

(34) Whitehead: Modes of Thought, New York, Macmillan Press, 1938, P. 202-203.

(35). Whit head: The Concept of Nature, P.54., Tarner Lectures m 1919, Cambridge Unig Press , 1920.

(36) إسلام، د. عزمي : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ، ص213-214.

(37) وايتهيد : مغامرات الأفكار ، ص309-310.

(38) المصدر نفسه ، ص313-314.

(39) ميتز ، رودلف: الفلسفة الانكليزية في مائة عام ، ترجمة فؤاد زكريا ، مراجعة د. زكي نجيب محمود ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1984 ، ص222.

(40) Whit head : The Concept of nature , P.55 , 56.

(41) إسلام ، عزمي : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ، ص211.

(42) خليل ، ياسين : مقدمة في الفلسفة المعاصرة ، ص240-241 .

(43). Whit head : The Concept of nature , P.74.

(44) دشوان ، د. محمد مهران : فلسفة برتراند رسل ، دار المعارف ، مصر، 1979 ، ص335-336.

قائمة المصادر:

1. **إسلام، د. عزمي: اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، 1980.**
2. **ابراهيم، د. زكريا: دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، القاهرة، 1968.**
3. **بدوي، د. عبد الرحمن: الموسوعة الفلسفية، ج2، المؤسسة العربية للدراسات والتوزيع، القاهرة، 1986.**
4. **خليل، د. ياسين: مقدمة في الفلسفة المعاصرة، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، طرابلس، 1970.**
5. **دشوان، د. محمد مهران: فلسفة برتراند رسل، دار المعارف بمصر، مصر، 1979.**
6. **رجب، محمود: الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1970.**
7. **محمد، د. علي عبد المعطي: الفرد نورث وايتهيد فلسفته وميتافيزيقياه، سلسلة دراسات الفلسفة الحديثة والمعاصرة، العدد 3 ، الاسكندرية، 1979.**
8. **ميتز، رودلف: الفلسفة الانكليزية في مائة عام، ترجمة فؤاد زكريا، مراجعة د. زكي نجيب محمود، دار النهضة العربية، القاهرة، 1984.**
9. **وايتهيد، الفرد نورث: مغامرات الافكار، ترجمة انيس زكي، مراجعة محمود الامين، مطبعة الارشاد، بغداد، 1966.**
10. **White head: A. N. adventures of ideas, New York , Macmillan, company, 1933.**
11. **Whit head: A , N, Process and Realty , New York, Macmillan, 1929.**

12. Whit head: A, N, The concept of nature, Cambridge, Press, 1920.

13. Whit head: A, N, Science and modern world, New York, 1925.

14. Whit head: A. N. Religion the making, Cambridge Univ., Press, 1926.

15. White head : A. N. Modes of thought m , New York , Macmillan , Press , 1938.